المقتطف

الجزء الخامس من السنة الحادية والعشرين

١ مايو (ايار) سنة ١٨٩٧ الموافق ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣١٤

تاريخ يوسيفوس

وخراب بيت المقدس

ليس الغرض من هذه المقالة ان نأتي على تاريخ اليهود ولا على اخبار حروبهم حسبما ذكرها يوسيفوس بل ان نذكر سيرته وما ابداهُ من البسالة والاقدام في محاربة الرومانيين. لكننا رأينا هذه السيرة متعلقة بوصف الحرب التي انتهت بخراب اورشليم لان في وصفها ما يدلُّ على الرجل كقائد ومؤرخ يتولى اطوارها كمتدرب بالحرب ومتلطف الى الرومانيين. وانسنا من القرَّاء ارتياحًا الى زيادة الاسهاب في ما ننقلهُ عنهُ فاخترنا ان نلخص ما ذكرهُ عن حصار بيت المقدس ولو ملأ ذلك صفحات عديدة من المقتطف فنقول

لما فرغ اسبسيانوس من امر مجاناة وابن يوسيفوس دوَّخ بلاد اليهود وفتح حصونها حصنًا مثل يافا وطبرية والكرك (طريخية) وام قيس (جدرا) وزحف يريد بيت المقدس (اورشليم) وبنى حصونًا في اريحا والحديثة (اديدا) ووضع فيها الحامية من جنده. وفي تلك الاثناء هلك هيرون الظالم وتولى المُلك بعدهُ مَن لا يحسن ادارتهُ من القواد فاجتمع رؤساء الجيش الذين مع اسبسيانوس ونادوا بهِ امبراطورًا على المملكة الرومانية وطلبوا منهُ ان يبادر الى تخليصها من المشاكل التي وقعت فيها فأبى مفضلاً قيادة الجيش على مهام الملك. لكن الجنود احاطوا بهِ شاهرين السيوف وتهددوهُ بالقتل ان لم يجب طلبهم فرأى ان الانقياد اليهم اولى من الاصرار على الرفض وكتب الى والي مصر ليأخذ لهُ البيعة من الجنود الرومانية التي فيها فبايعهُ اهالي مصر والشام واسيا الصغرى والبلاد التي شرقي الفرات والجزر. وقام من قيصرية الى بيروت فرأى الوفود بانتظاره فيها من ولاة الاقاليم ومعهم التيجان والهدايا

وذكر اسبسيانوس حينئذٍ نبوَّة يوسيفوس الذي لقَّبهُ بها بلقب القيصر ونيرون في قيد الحياة فاستدعى قواد الجند واخبرهم بشجاعة يوسيفوس وبما انبأهُ بهِ من وصول الملك اليهِ وقال "عار علينا اذا ابقينا هذا الرجل في القيود بعد ان انبأني بما وصلت اليهِ الآن وكان واسطة لإبلاغ صوت الله اليَّ" ثم امر ان يؤتى بهِ وتفك القيود من رجليهِ. وكان طيطس ابنهُ حاضرًا فقال يا ابتاهُ لا يكفي ان تُفك القيود بل يجب ان تُكسَّر كسرًا لكي تزيل بذلك وصمة العار أُتيَ لحقتهُ من وضعهِ فيها". فقد كانت العادة انهُ اذا وضع انسان في القيود ثم ثبتت براءتهُ تكسر القيود كسرًا اعترافًا ببراءتهِ ونزعًا للعار. فاستحسن اسبسيانوس ما قالهُ طيطس وكسر قيود يوسيفوس واحسن اليهِ احسانًا عظيمًا. وذهب طيطس مع ابيهِ إلى الاسكندرية ثم عاد منها لمحاربة اليهود

وكان خوارج اليهود في بيت المقدس قد انقسموا ثلاث فرق الاولى رئيسها العازار بن شمعون وكان مقرها الهيكل وما جاورهُ والثانية رئيسها شمعون بن غوراس وكان مقرها في الاحياء العليا من المدينة والثالثة رئيسها يوحنا الجيشي وكان مقرها في الاحياء السفلى من المدينة. ونشبت الحروب والفتن بين هذه الفرق الثلاث واوقع بعضهم ببعض وكان الكهنة يُقتلون في القدس ويمتزج دمهم بدم ذبائحهم والعبَّاد الذين يأتون من اقاصي البلدان للعبادة يسفك دمهم في الهيكل وتختلط جثثهم بجثث اليهود المقيمين في اورشليم. وأُحرقت كل المنازل المحيطة بالهيكل وكل المخازن وما فيها من الحنطة ولو لا ذلك لكان في المدينة طعام يكفي اهلها شهورًا كثيرة

وزادت الشرور والمفاسد حتى صار العقلاء من الاهالي يطلبون من الله ان يرسل اليهم الرومانيين لكي ينقذوهم منها او يريحوهم من هذه الحياة. ولم يكن للقوم فرصة للثورة ولا باب للهرب لان الحراس كانوا على مخارج المدينة كلها يقتلون كل من يحاول الفرار منها. وهم معما اختلفوا في ما بينهم كانوا متفقين على محاربة الرومانيين والايقاع بكل من يقصد الهرب اليهم. ولم يكن احد يهتم بدفن الموتى والقتلى غصَّت بجثثهم المنازل والشوارع

وكان الملك اغريبا قد جلب اشجارًا عظيمة من جبل لبنان من الارز الفاخر ليبني بها الهيكل فصنعها يوحنا آلات للحرب والحصار لكي يصد الرومانيين بها

ووصل طيطس الى قيصرية وجمع جيوشهُ فيها وانضمَّ اليهِ الفيلق الثاني عشر الضامن الجنود الرومانيَّة فصار معهُ اربعة فيالق فامر واحدًا منها ان يسير بطريق عموماس وواحدًا بطريق اريحا وسار هو بالفيلقين الاخيرين وجم غفير من الاعوان والتديبين وسارت الجنود الرومانيَّة على هذا النسق :

سار اولاً الاعوان الذين ارسلهم ملوك الاقاليم ويهدم ممهدو الطرق وناصبو الخيام ثم امتعة القواد ثم فرقة من الجند لحراستها وبعدهم طيطس نفسهُ ومعهُ نخبة حملة الفؤوس ووراءهم الفرسان ثم آلات الحرب ثم القواد واركان حربهم ثم الاعلام والنسر الروماني وامام كل علم الابواق الخاصة به ثم صفوف الجنود ووراءهم الامتعة والخدم واخيرًا الفرقة ثم الذين يحرسونهم وهم ساقة الجيش

وبات طيطس ليلتهُ الاولى في مدينة جثنة وكان ابوهُ قد تغلَّب عليها ووضع فيها حامية رومانيَّة. وقام في اليوم التالي ونصب خيامهُ في وادي الشوك بقرب جبعة شاول اي تل شاول (لعلهُ تل الفول او جبعة) على ثلاثين غلوة من اورشليم وقام من هناك بستمئة فارس وثلاثة آلاف راجل لكي يرى حصونها ويعلم قوتها ويرى من فيها انهُ جاء عليهم بخيلهِ ورجلهِ ليعلمهم يسلِّمون لهُ من غير حرب اذ بلغهُ ان اهالي المدينة غير راضين عن حالتهم الحاضرة ويودون الخلاص من الطغاة الثلاثة الذين استولوا عليهم بكرهٍ ودسائسهم

فسار في خط مستقيم نحو المدينة ولم يرَ احدًا امام ابوابها ثم التفت ليدوِّر عليها واذا بجمهور غفير من اليهود خرج من الباب المقابل لهُ وفصل بينهُ وبين رجالهِ فلم يستطعهُ الاَّ نفر قليل منهم وتعذر عليهِ التقدم الى ما امامهُ لان في الارض جدرانًا قائمة في طريقهِ وخنادق عميقة وتعذَّر عليهِ الرجوع الى رجالهِ لان اليهود فصلوا بينهُ وبينهم لكنهم لم يدعوا لهُ سبيلاً الى النجاة الاَّ بالرجوع على اليهود فادار جوادهُ ونادى بالذين معهُ ليتبعوهُ واستلَّ سيفهُ واقتحم جموع الاعداء والنبال تنصبُّ عليهِ وهو بلا درع ولا خوذة وكان اليهود يتهافتون عليهِ فيزعق بهم ويحمل عليهم حملة الابطال فيفرقهم شذر مذر والنفر القليل الذي معهُ يحمون ظهرهُ ويتبعهُ اثنان منهم عنهُ فاوقع اليهود بهما وقتلوهما. وظلَّ على هذه الحال الى ان تمكَّن من النجاة ومرَّ اليهود بهذا الظفر واتخذوهُ دليلاً على ان العناية ستعينهم على اعدائهم

وقام طيطس في اليوم التالي وصعدَ الى المكان المدعى سكوبس (المشارف) حيث ترى المدينة وهيكلها وامر ان تنصب هناك خيام فيلقين من جنودهِ وان تنصب خيام الفيلق الثالث على ثلاث غلوات منها وخيام الفيلق الرابع (وهو الفيلق العاشر) على جبل الزيتون شرقي المدينة وهو على ستغلوات منها وبينهُ وبينها وادٍ عميق

فلما رأى اليهود ان جنود الرومانيين احاطوا بالمدينة لكي يبدوا خناقها قالوا ما لنا نشتغل بمحاربة بعضنا بعضًا عن محاربة اعدائنا وقد احاطوا بنا احاطة السوار بالمعصم هلمَّ نخرج اليهم ونوقع بهم قبلما يتمكنون من نصب خيامهم واقامة الحصون حولها فاختطفوا اسلحتهم

وخرجوا على الفيلق الاخير الذي كان ينصب خيامهُ على جبل الزيتون . وكان الرومانيون آمنين وقد طرحوا سلاحهم جانباً فلم يشعروا الاَّ واليهود يتدفقون عليهم تدفقاً فبهتوا واركن بعضهم الى الفرار و بادر البعض الى اسلحتهم فقابلهم اليهود بالسيوف والحراب واوقعوا بهم وفي الخبر إنَّ طيطس فاسرع بشرذمة من نخبة رجالهِ وهجم على اليهود فقتل كثيرين منهم وهرب الباقون الى الوادي فتبعهم وامر ان تعطف فرقة من الجنود للقتال وتهتم الفرق الاخرى بنصب الخيام وتحصين المعسكر فلما رأى اليهود الرومانيين راجعين لتحصين المعسكر ظنوا انهم هربوا من وجوههم فعادوا الكرة كأنهم حجارة تقذفها المجانق فهرب الرومانيون من وجوههم ولم يبقَ في الوادي الاَّ طيطس وبعض رجالهِ فالحوا عليهِ في الانصراف من وجه اليهود لانهم رأوهم مستقتلين فلم يلتفت اليهم . وتطلع الجنود الذين على الجبل الى الوادي وشاهدوا طيطس فيهِ يحيط بهِ اليهود فكبر عليهم الامر وعلتهم حمرة الخجل فارتدوا عليهم بعزيمة صادقة واقتتلوا قدام من جانب الموت

واحتال اليهود على الرومانيين حيلة كادت تودي بكثيرين منهم . ذلك ان قوماً من الخوارج تظاهروا كأن جماعة الشعب طردتهم من المدينة لاصرارهم على العصيان فخرجوا منها متضعضعي الحال وتظاهروا كأنهم خائفون من ان يعرف الرومانيون امرهم فيوقعوا بهم ووقف الناس على الاسوار ينادون الرومانيين و يتأمنون اليهم. وكان الخوارج يرتدون إلى الابواب قاصدين الدخول فيرشقهم هؤلاء بالحجارة و يصدونهم عنها . وانخدعت الجنود الرومانية بهذه الحيلة وظنت انها تقتل اولئك الخوارج ثم تدخل المدينة بامان لان الشعب استأمن اليها. ولم تنطلِ هذه على طيطس فامر جنودهُ ان يبقوا في مواقفهم لكن بعضهم كانوا بعيدين عنهُ ولم يسمعوا اوامرهُ فهجموا على الخوارج إلى ان صاروا بين الاسوار وللحال خرج عليهم جمع غفير من اليهود واحاطوا بهم ورشقهم الذين على الاسوار بالحجارة والسهام فقتلوا وجرحوا كثيرين منهم . وأُسقط في يد الرومانيين وارتبكوا في امرهم خجلاً ودهشة ولكنهم قالوا ان نحن صدنا مخذولين فليس امامنا الاَّ العقاب الشديد فقاتلوا مستبسلين وارتدوا رويداً رويداً فنجا كثيرون منهم . وقابلهم طيطس بوجه عبوس وقال لهم " ان خصومكم قطعوا الآمال من النجاة ولذلك لجأوا إلى الحيل والمكايد وقد افلحوا في حيلهم لانهم طائعون بنهلوا الانقياد لرؤسائهم واما الرومانيون الذين عُقد النصر لهم دائماً لحسن تدرُّبهم وانتظامهم فقد خانهم الصمد الآن لانهم جبنوا على ضدٍّ ما دُرِّبوا عليهِ ولُهروا لانهم لم يقدروا ان يصبروا حينما كان الصبر واجباً . والعار كل العار انهم حاربوا من غير ان يؤمروا وكان ذلك في حضرة اميرهم . اني اسمع قوانين الحرب

تئن مترجّعة متفجّعة من جرّاء ذلك وميشاركها ابي في التوجّع والتفجّع حينما يبلغهُ ما حلّ بنا فانهُ شابَ في مواقع القتال ولم ير خطاء مثل هذا . وقوانيننا توجب الموت على من يرتكب اقل خلل في نظام الحرب فكيف وقد ارتكب هذا الخطأ جيش كبير . لكن الذين يصدق عليهم كلامي سيعملون حالاً ان الرواقي الذي يخالف القوانين يعاقب ولو انتصر". فوقع كلامهُ كالصواعق على رؤوس الجنود الذين خالفوا امرهُ وعلموا ان لا مفرّ لهم من الموت . واحاط باقي الجنود به وجعلوا يتوسلون اليهِ لكي يعفو عمّا جرى ووعدوهُ بالطاعة التامة وحسن الانقياد وما زالوا يتوسلون اليهِ ويتضرعون حتى عفا عن المجرمين بعد ان وبخهم توبيخاً صارماً ولم يعفُ عنهم الاَّ لانهُ رآهم كثيري العدد فيتعذّر تنفيذ الحكم عليهم في تلك الاحوال

وامر فرُومت الاودية التي بين المعسكر والاسوار ونزل هو على غلوتين منها فقط وابقى الفيلق العاشر على جبل الزيتون . وكان يحيط باورشليم ثلاثة اسوار الاَّ حيث يتصل بها وادٍ عميق لا يعبر فانهُ كان يحيط بها هناك سور واحد . وكانت مبنيّة على تلين متقابلين احدهما اعلى من الآخر وبلي الواطىء منهما تل آخر اوطأ منهُ كان بينهما وادٍ عميق ولكن بني حشمناي طرفهُ بالقراب فاتصلا

والاودية عميقة حول هذين التلين حتى يتعذّر الدنو منهما . والسور الاقدم من الاسوار الثلاثة مبنيٌّ بناء متيناً جدًّا بحجارة كبيرة وهو في موقع حصين يتعذّر الدنو منهُ لقيامهِ فوق الاودية . ثم ذكر يوسيفوس اسماء الاماكن التي برُبها كل سور من الاسوار الثلاثة وبعضها لم يحقّق موقعهُ حتى الآن وقال في الكلام على السور الثالث ان اغريبا بناهُ بحجارة كبيرة طول الحجر منها عشرون ذراعاً وعرضهُ عشر اذرع ولكنهُ لم يتمّهُ لئلاَّ يظن بهِ كلوديوس قيصر السوء ولذلك لم يبلغ ارتفاعهُ الاَّ عشرين ذراعاً وكان فوقهُ تتاريس وشرفات علوها خمس اذرع وعليهِ تسعون برجاً بين كل برجين منها مئتا ذراع وعلى السور الثاني وهو الاوسط اربعة عشر برجاً وعلى السور الاول وهو الاقدم ستون برجاً وكان محيط المدينة كلها ٣٣ غلوة اي نحو اربعة اميال . ولما اتمّ وصف السور اخذ يصف الابراج ومنها البرج الذي عند بوابة يافا وكان ارتفاعهُ ٣٠ ذراعاً وفوقهُ صهريج ارتفاعهُ عشرون ذراعاً وفوق الصهريج طبقات من الغرف وشرفات ومتاريس فيبلغ ارتفاع البرج كلهِ ثمانين ذراعاً . ومنها البرج المسمى الآن برج داود وهو من بناء هيرودس ايضاً وكان عرضهُ اربعين ذراعاً وارتفاعهُ اربعين ذراعاً وفوقهُ رواق ارتفاعهُ عشر اذرع وفي وسط الرواق برج آخر فيهِ غرف فاخرة كأنهُ قصر من قصور الملوك وفوق سطحهِ شرفات ومتاريس فيبلغ ارتفاع البرج وما فوقهُ من الابنية تسعين ذراعاً

ومنظرهُ يشبه منظر منارة الاسكندريَّة. والبرجان مبنيَّان بحجارة كبيرة من الرخام الابيض وهي محكمة البناء حتى تظهر كحجر واحد. ثم وصف قصر هيرودوس وما فيهِ من القصف والآنية الفضيَّة والذهبيَّة وما حولهُ من الاروقة والرياض والتماثيل النحاسيَّة واستطرد من ذلك إلى وصف الهيكل وقال ان في جدرانهِ حجارة كبيرة طول الحجر منها اربعون ذراعًا وان الاساطين في اروقتهِ كثيرة طول كل منها ٢٥ ذراعًا وهي حجر واحد من الرخام الابيض والسقوف من ارز لبنان وفيها من النقش ما يقصر الوصف عنهُ. والابواب كبيرة ارتفاع كل منها ثلاثون ذراعًا وعرضهُ خمس عشرة ذراعًا واغلاقها مصفحة بالفضة والذهب ومنها باب كورنثي كبير يفتح الى الشرق ارتفاعهُ خمسون ذراعًا وهو من النحاس الكورنثي البديع النقش وعليهِ صفائح سميكة من الفضة والذهب

والقدس نفسهُ داخل الهيكل عرضهُ مئة ذراع وارتفاعهُ مئة ذراع يدخل اليهِ بباب ارتفاعهُ سبعون ذراعًا وعرضهُ خمس وعشرون ذراعًا وهو مفتوح لا غلق لهُ ومغطًّى بصفائح الذهب. والقدس مقسوم قسمين الواحد داخل الآخر ويفصل بينهما حاجز من النسيج الطارجي منهما وفيهِ دوالٍ من الذهب تتدلَّى منها عناقيد من الذهب طول العنقود مثلها قامة. والقسم الداخلي باب ذهبي علوهُ خمس وخمسون ذراعًا وعرضهُ ست عشرة ذراعًا وامامهُ ستار بابلي مطرَّز بالابيض والازرق والقرمزي وعليهِ صور ما في السماء ما عدا صور البروج. وفي القدس المنارة والمائدة ومذبح البخور واما قدس الاقداس وهو القسم الداخلي من القدس فلم يكن فيهِ شيء

وكانت واجهة الهيكل مغطاة بصفائح الذهب فينعكس عنها نور الشمس حينَ شروقها ويبهر الابصار

وكان مع شمعون في الاماكن العالية من المدينة عشرة آلاف مقاتل ما عدا الادوميين وهم خمسة آلاف. ومع يوحنا ستة آلاف مقاتل عدا الغيورين الذين انضموا اليهِ وهم الفان واربع مئة. وقد استولى يوحنا على الهيكل واصطلح هذان القائدان عند اول مجيء الرومانيين عليهما ثم عادا الى الشحناء وقال اهالي المدينة منهما اكثر مما نالهم من الرومانيين. ويقال جملة ان هؤلاء الخوارج اهلكوا المدينة وان الرومانيين اهلكوهم

ودار طيطس حول المدينة مرَّة اخرى مع نخبة من فرسانهِ لكي يرى عورة في اسوارها فرأى فيها جانبًا ضعيفًا يسهل ثغرهُ والعبور منهُ الى السور الثالث فالمدينة العليا فاذا استولى عليها امكنهُ الاستيلاء على الهيكل فامر الجنود ان ينهبوا ضواحي المدينة ويأتوا بما فيها من الاخشاب والاشجار ويبنوا بها اسوارًا امام المدينة واقام الزماة هناك ونصب المجانيق والعرادات لكي لا يخرج اليهود ويصدوا رجالهُ من بناء الاسوار

وكانت حجارة المجانق كبيرة وزنها شديداً فتقتل كل من يقف في طريقها لكنها كانت بيضاء اللون فصار اليهود ينتبهون لها قبل وصولها ويحيدون من طريقها وعرف الرومانيون ذلك فصاروا يسودونها حتى لم يعد اليهود يرونها فتكت بهم فتكاً ذريعاً

ولما اتم الرومانيون بناء حصونهم وضعوا عليها الكباش وجعلوا يخطون الاسوار بها ورأى اليهود ذلك تايقنوا بالهلكة واصطلحوا بعضهم مع بعض وتناسوا ما بينهم من البغضاء وتحالفوا على مقاومة العدو بكل طاقتهم واصطفوا على الاسوار وجعلوا يرشقون الرومانيون بالنبال ويرمون المشاعل على الكباش ليحرقوها . وكان الرومانيون قد وضعوا حول الكباش دبابات[1] وقاية لها وللذين يدفعونها فخرج اليهود وحرقوها وقتلوا الذين فيها . الا ان طيطس لم يأل جهداً فضاعف عدد الرجال وحمام بالرماة . ودامت الحرب على هذا المنوال اياماً والكباش تنطح السور ولا تنال منهُ أربا . وخرج اليهود من باب خفي قرب برج هيكس (ترب باب يافا) وحاولوا احراق الكباش والمجانق وسائر آلات الحصار واشتد القتال بينهم وبين الرومانيين وكادوا يفلحون في إحراقها لو لم يبادر طيطس بنجدة فرسانهِ ويقع عليهم ويقتل اثني عشر رجلاً منهم يبدو ويضطرهم إلى الفرار والرجوع إلى المدينة . وكان يوحنا قائد الادوميين واقفاً على السور فاصابتهُ نبلة في صدرهِ فوقع قتيلاً وحزن عليهِ اليهود لانهُ كان من الابطال المعدودين والقوَّاد المحنكين

وبنى طيطس ثلاثة ابراج ارتفاع كلٍّ منها خمسون ذراعاً ونصب عليها آلات الحصار وآلات رمي السهام وجعل يرشق المحاصرين بها لكي يصرفهم عن قتال الرامين بالكباش . وكان بين الكباش كبش كبير اسمهُ نيقور (اي القاهر) فثقب السور الثالث ودخل الرومانيون من الثغرة وفتحوا الابواب ونصبوا خيامهم في المكان المسمَّى مخيم الاشوريين (في الشمال الغربي من المدينة بين كنيسة القيامة والسور) وجعلوا يهاجمون السور الثاني

ودامت الحرب سجالاً بين الفريقين واظهر كل فريق من البسالة والاقدام ما يخلد ذكرهُ في صفحات التاريخ اما اليهود فلجسارتهم الخلقية وخوفهم من الوقوع في يد الرومانيين واما الرومانيون فلرغبتهم في ارضاء قائدهم طيطس وفي احراز الفخار ولانهم اعتادوا الظفر في مواقع القتال . لكن طيطس كان يحذِّر رجالهُ من اقتحام المخاطر قائلاً ان الشجاعة الصحيحة تقوم

(١) الدبابة آلة تتخذ في الحصار يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع الى اصل الحصن فينقبونهُ وهم في جوفها . ويظهر من وصفها انها كانت من الخيدان وكانت توضع ايضاً حول الكباش لوقاية الذين يضربون بها الاسوار

بالحكمة والتدبير لا بالاقتحام والتغرير

ثم امر فنُصب الكبش على البرج الاوسط من ابراج السور الشمالي وكان هناك رجل من اليهود اسمهُ كستور مع عشرة آخرين فلما رأوا البرج يهتز من عنف الكبش يسعوا اياديهم يستجيرون بطيطس ويتوسلون اليهِ لكي يشفق عليهم فصدَّقهم وظن ان اليهود كلهم قد خافوا العاقبة وندموا على ما فرط منهم . وسألهم عما يريدون فقال كستور انهُ ينزل من البرج ويسلم نفسهُ اذا أُعطي الامان فسُرَّ طيطس بذلك وقال انهُ يؤمِّن كل اهل المدينة اذا استأمنوا اليهِ . وانقسم العشرة قسمين خمسة منهم تظاهروا بموافقة كستور وخمسة تظاهروا بمخالفتهِ وكثُر النزاع بينهم وتدرجوا من المشاتمة إلى الملاكمة ثم استلوا سيوفهم وجعلوا يتضاربون بها . وكان طيطس قد امر فاوقفوا الكبش عن نطح البرج وجعل ينظر الى هؤلاء الرجال ويتعجب بسالتهم واشار الى يوسيفوس ان يذهب الى كستور ويؤمنهُ على نفسهِ فاعتذر عن ذلك قائلاً ان هؤلاء الرجال يجادفونك ويتطاردون بتجارة بعضهم بعضاً كرًّا منهم . فقال واحد اسمهُ ايناس انا اذهب الى كستور وذهب اليهِ فلم يكن من كستور الاَّ انهُ رفع حجرًا كبيرًا ورماهُ بهِ فاخطأهُ واصاب واحدًا من الجنود وعلم طيطس حينئذٍ ان ما فعلهُ كستور ورجالهُ حيلة منهم ليؤخروا فتح البرج إلى ان يأتي القائد شمعون فامر ان يعاد الكبش ويشدَّد الحصار فاستولى على السور الثاني بعد خمسة ايام ودخل الاحياء التي داخلهُ وامر رجالهُ ان لا يقتلوا احدًا من اليهود الذين هناك ولا يحرقوا منازلهم لانهُ كان يرغب في حفظ المدينة وهيكلها

اما اليهود فلم يفهموا غرضهُ بل حسبوا ذلك ضعفًا منهُ وقالوا انهُ رأى نفسهُ عاجزًا عن فتح السور الثالث فاظهر هذا اللين لكي يأخذنا بالحيلة وتهددوا بالقتل كل من يذكر كلمة الاستسلام وتحصنوا في بيوتهم وجعلوا يتكون بكل من مرَّ بهم من الرومانيين وتبعوهم في الشوارع الضيقة واثخنوا فيهم وحاول الرومانيون الخروج من المدينة فلم يستطيعوا لان ثغرة السور التي دخلوا منهم ضيقة يتعذر خروج جماعة منها دفعةً واحدة فوقف الرماة منهم في رأس الشارع الموصل إلى الثغرة وجعلوا يرشقون اليهود بالسهام إلى ان خرجت الجنود الرومانية كلها . فزعم اليهود حينئذٍ ان الرومانيين عاجزون عن امتلاك المدينة ولو دخلوها فزادوا جرأةً وعنادًا كأن الله اعمى بصائرهم لكي يؤخذوا بجرائمهم . وتمكنوا من الدفاع ثلاثة ايام وسيأتي اليوم الرابع دخل طيطس السور الثاني وخرَّبهُ واخذ في مهاجمة السور الثالث . وسيأتي تفصيل ذلك في الجزء التالي